

نشأة القاهرة وامتدادها في أيام الأيوبيين

بسم

و بحمد الرحمن زكي

١ - القاهرة في أيام الفاطميين

(٩٦٩ - ١١٧١)

بعد أن نجح الخليفة للمز لدين الله في دولته الإفريقية التي أسسها جسده أبو عبيد الله ، ومن حدودها إلى ساحل الأطلس ، عزم على فتح مصر ، وكان أبوه وجده قد حاولا الاستيلاء عليها فلم يفلحا . فلما تولى للمز الحكم أراد أن يحقق أمنيتهما ، وكانت مصر في ذلك الحين عرضة للنزاة ، فقد عمت فيها الاضطرابات الداخلية والمجاعة التي سببها انخفاض النيل والطاعون .

وكان للمز لدين الله ملما بحالة البلاد بعد أن اتصل به يعقوب بن كلس اليهودي الذي هاجر من مصر .

طلب الخليفة للمز إلى قائده جوهر الصقلي أن يضع الخطط العسكرية ويجهز حملة لفتح مصر ، فحشد مائة ألف رجل مجهزين بالمدات والذواب وأرسل معهم للؤن والعتاد وكل ما يحتاجه هذا الجيش الجرار . وبدأت الحملة مسيرها من القيروان في ١٤ ربيع الأول سنة ٣٥٨ هـ (٥ فبراير ٩٦٩) ، فوصلت إلى

الإسكندرية واستولى جوهر عليها . ثم واصل زحفه إلى الجزيرة فوقت في يده في ١٧ شعبان سنة ٣٥٨ هـ (٦ يوليو (١) وعبر النيل بالقرب من منية الشلقان وهزم الجيش الذي أعد للدفاع على الشاطئ الشرقي للنيل . وفي أعقاب ذلك دخلت الجيوش الفاطمية بقيادة جوهر مدينة القسطنطينية عند منبب الشمس وعسكرت في السهل الرملي الواقع إلى الشمال ، وكان يحده هذا السهل من الشرق جبل المقطم ومن الغرب الخليج (٢) الذي يصل بين شمالي القسطنطينية ومدينة هليوبوليس القديمة ، وينتهي عند القلزم على البحر الأحمر . وكان السهل المذكور خاليا من المباني إلا بضعة مبان ملحقة ببساتين كافور الإخشيدي ، ودير نسيح اسمه دير العظام وكان يشتمل مكان مسجد الأقمر حصن صغير يسمى قصر الشوك .

تأسيس القاهرة

وفي مساء ١٨ شعبان سنة ٣٥٨ هـ ، اختلط جوهر بموقع القصر الذي قرر أن يستقر فيه للمز تنفيذاً لأوامر أبيه . وحينما أتى أعيان القسطنطينية في الصباح التالي لتنهته وجدوا أن أساس البناء الجديد كانت قد حفرت . وبني سوراً خارجياً من عن اللبن علم شكل مربع طول كل ضلع من أضلاعه ١٢٠٠ ياردة وكانت مساحة الأرض التي حددها هذا المربع ٣٤٠ فداناً منها نحو ٧٠ فداناً بنى عليها جوهر القصر الكبير وخمس وثلاثين فداناً للبستان الكافوري ومثلها للميادين والباقي قدره مائتان فدان هو الذي وزع على الفرق العسكرية في نحو عشرين خطاً بجانب نية القاهرة (١) ، ونظراً لأن جوهر كان قد أسرع في حفر أساس القصر بالليل

(١) مذكر بعض المراجع هذا التاريخ ١١ شعبان عام ٣٥٨ هـ (أول يوليو ٩٦٩) .

(٢) ردم هذا الخليج في أواخر القرن التاسع عشر ، ويسمى الشارع الآن شارع الخليج

المصري .

(٣) المخطط التوفيقية لعل باشا مبارك ج ٢ ص ٨١ .

فحدثت فيه انحناءات غير معتادة فلما شاهدناها في الصباح لم يعجبه ، لكنه قال :
 « قد حفر في ليلة مباركة وساعة سعيدة » وتركه على حاله . وفي اليوم الذى خط
 جوهر القاهرة أخذت كل قبيلة من القبائل الشيمية التى تآلف منها جيشه خطته
 فاتخذت زويلة الحطة المرفوفة إلى اليوم ، واختطت جماعة من برقة الحارة البرقية
 واختطت الروم حارتين البرانية والجوانية بقرب باب النصر^(١) وكان غرض جوهر
 من إنشاء القاهرة أن تكون مقلدا حصينا لرد القرامطة عن مدينة مصر الفسطاط
 ليقانلهم من دونها فأدار السور اللبن على مسكرات قوائمه وأنشأ من داخل السور
 جامعا وقصرا واحتفر خندقا من الجهة الشمالية لينسج القمامة جيش القرامطة إلى
 القاهرة ومصر من ورأسها^(٢) أما القصر الذى بناه جوهر فقد أوضح ابن دقاق
 الغرض الذى رما إليه جوهر ، فقال أنه بناه لمولاه حتى يكون هو وأعوانه وجيوشه
 بمنزل عن عامة الشعب . ويمكن تتبع حدود سور القاهرة للمزية فى أكثر
 أجزائه بفضل للملومات التى أمدنا بها للقرزى ما عدا ذلك الجزء الواقع بين باب
 النصر وباب البرقية فليس لدينا أية بيانات عنه . وقد كانت القاهرة تحدد من الشمال
 بموقع باب النصر والحلاء الممتد أمامه . ومن الجنوب بموقع باب زويلة القريب
 من موقعه الحالى المواجه للفسطاط ومن الجهة الشرقية بموقع باب البرقية والباب
 المحروق المواجهين للمقطم ، ومن الجهة الغربية بموقع باب سمادة اللؤلؤ أو المهادى
 لحليج أمير المؤمنين بعيدا عنه بنحو ٣٠ مترا .

وقيل أنه لما فرغ جوهر من بناء قصر الخليفة وأقام حوله السور ، سمى المدينة
 فى أول الأمر للنصورية تيمنا بأهم مدينة النصورية التى أنشأها خارج القيروان للنصور

(١) المخطط للقرزى طبعة النيل ج ٤ . ص ١٧٩

(٢) المخطط للقرزى طبعة النيل ج ٢ . ص ١٧٤

بالله والد المعز واستمر هذا الاسم حتى قدم للمعز إلى مصر فاطلق عليها القاهرة (١) وذلك بعد مرور أربع سنوات على تاسيمم (٢). ومن الواضح كما أشارت «راينباير» أننا يمكننا أن نجزم بأن القائد جوهر كانت لديه تعليمات من الخليفة بأن ينشئ المنصورية مدينة تكون للمنسطاط بمثابة المنصورية لاقيروان أو بمثابة فرساي لباريس أو وندسور ل لندن .

ويلاحظ بهذه المناسبة ما ذكره البكري من أن بايين من أبواب المنصورية كان يطلق على أحدهما باب زوية والثاني باب الفتوح وقد أطلق هذان الأسمان على بايين من أبواب سور مدينة القاهرة المصرية .

وفي يوم الثلاثاء السادس من شهر رمضان سنة ٣٦٢ هـ (١٠ يونيو ٩٧٣ م) لما وصل للمعز إلى القاهرة على رأس أفراد أسرته تجاهل المنسطاط فلم يشقها وكانت قد زينت ابتهاجا لمقدمه ثم قصد القصر الكبير وأمر ببناء مقبرة لدفن أجداده الذين استحضر جثثهم معه في توابيت . وفي آخر شهر رمضان أقام الصلاة بنفسه بالأزهر وخطب خطبة العيد . وكانت الصلاة قد أقيمت

(١) كتاب تماظ الحفاء بأخبار بلاط الخلفاء للمعريزي - بيت المقدس - ١٩٠٨ .

(٢) قيل في سبب تسميتها أن القائد جوهر لما أراد بناء القاهرة أحضر النجمين وعرفهم أنه يريد عمارة بلد خارج مصر ليقم فيها الجند وأمرهم لاختيار طالم سعيد لوضم الأساس وطالم لخر السور وخطوا بدائر السور قوائم إخشب بين كل قائمتين جعل فيها اجراس وقالوا للعمال إذا تحركت الاجراس قارموا بأيديكم من الطين والحجاره فوقفوا ينظرون الوقت الصالح لذلك فانفق أن غرابا وقع على جبل من الجبال التي فيها الاجراس فتحركت كلها فظن العمال أن النجمين قد حركوها فالتقوا ما بديابهم من الطين والحجارة وبنوا فصاح النجمون « القاهرة في الطالم » فضى ذلك وفاتهم ما قصدوه وقيل أن المربخ كان في الطالم عند ابتداء وضع الأساس وهو قاهر الملك فسموها القاهرة - المخطط القرينزية ج ٢ ص ٣٠٤ .

لأول مرة بالجامع الأزهر في يوم الجمعة لست خلون في رمضان سنة ٣٦١ هـ (٢١)
يونيو ٩٧٢) (١).

فكان القاهرة المدينة المسورة لم يقصد جوهر من إنشائها في بادئ الأمر أن تكون قاعدة أو دار خلافة أو منزل ملك بل وضما لتكون سكنا للخليفة وحرمة وجنده وخواصه ومعقل قتال يتحصن به ويلتجى إليه (٢) . فنشأت القاهرة مدينة خاصة للدولة الفاطمية الناشئة واستمرت حينما بعد قيامها مدينة خليفية عسكرية لشمس على قصور الخلفاء ومساكن الأمراء ودواوين الحكومة وخزائن المال والسلاح ، ثم أصبحت بعد إنشائها بأربعة أعوام عاصمة الخلافة الفاطمية لما انتقل المزم وأسرتة من المغرب وزلوا في القصر الشرقى الكبير واتخذ الخليفة مصر موطنه له . وكان ذلك في يوم الثلاثاء ٦ رمضان ٣٦٢ هـ (١٠ يونيو ٩٧٣) (٣) .

(١) ذكر المقرئزى فى الخطط (بولاق ج ٢ ص ٢٧٣) أن ذلك كان من يوم الجمعة لسبع خلون من رمضان وهو خطأ لأن يوم ٧ يوافق يوم السبت - كما جاء فى التوقيعات الالهامية. وقد عنى المؤرخون بذكر أول صلاة جمعة تقام فى أية مدينة اسلامية منذ عهد الفتح ، وحدث ذلك فعلا بالجامع الأزهر يوم الجمعة لست خلون من رمضان سنة ٣٦١ هـ الموافق يوم ٢١ يونيو ٩٧٢ .

(٢) الخطط المقرئزية ، طبعه اليل - ج ٢ - ص ١٨٤

(٣) أن تصمى القاهرة الأصلى يوضح تأثر القائد جوهر والمز بما راياه فى أفريقيا - الشماليه من التخطيط الرومانى فإنه يمكن التشبيه بين مدينة تمجد الرومانية ومدينة القاهرة من حيث وجود شارعين أساسيين للسكراد وما كسيموس والديكومانوس ما كسيموس اللذان يقسمان المدينة أحدهما من الشمال إلى الجنوب منتها إلى طرق المواصلات للوجهين القبلى والبحرى مارا بالميادين الوسطى التى بها قصر الحاكم وخدمه وجنده وحدائقه بدلا من المعبد والبسيوم والادويون الرومانى . وأما الطريق الثانية فيقسم المدينة من الشرق إلى الغرب أى من باب الوزير وكان ذلك الطريق ينتهى إلى الجامع الأزهر . وليست القاهرة بالمدينة الوحيدة ذات الأسوار العتيده المتعدده بل يمكن القول بأن مدينة باريس وعمرها عشرون قرنا قد اعيد تشييد حصونها ست مرات متوالية إلى أن تخلصت نهائيا منها .

ولم يكن لقاطى مصر أن يدخلوا « القاهرة » إلا بإذن يسمح لصاحبه بدخول إحدى بوابات القاهرة وكان مفوضو الدول الأجنبية الذين يحضرون الحفلات الرسمية يترجلون عن جيادهم ويستقدمون إلى القصر بين صفين من الجنود على الطريقة البيزنطية — وكانت أسوار القاهرة العالية وأبوابها المحروسة تحجب الخليفة عن أنظار شعبه .

وبعد بضعة أعوام ادمت المدينة الناشئة ونمت نموا كبيرا وبدأت القاهرة حياتها في ظل الخلفاء الفاطميين وتبوات مكاتبها العظيمة بروقتها وبهاؤها ثم اتصت بمصر الفسفاط وصارتا تؤلفان معا أكبر المدن الإسلامية في العصور الوسطى .

أسوار القاهرة الفاطمية (١)

كانت المدن في أغلب أنحاء العالم في الزمن للماضى تحصن بأسوار تقام حولها لصد هجمات الغزاة عليها . ولهذا فإنه لما أنشأ القائد جوهر مدينة القاهرة حرص على أن يقيم حولها سورا سميكاً من اللبن وفتح فيه الأبواب الضخام .

وبعد مضي حوالي القرن من تأسيس القاهرة رأى أمير الجيوش بدر الجمالى وكان يومئذ وزيراً للخليفة المستنصر أبو عييم معد أن الناس بنوا خارج السور بسبب الساع العمران ، لاسيما في الجهتين البحرية والقبليّة من المدينة فأحاطها بسور وصله بسور جوهر القائد ميمناً ويساراً وفتح فيه أبواباً أمام الأبواب القديمة لتسكون عوضاً عنها .

(١) رجعنا عند كتابة هذا الفصل إلى مذكرات المرحوم المؤرخ محمد بك رمزى

ولما زاد العمران بعد ذلك والسمت للدينة أخذ صلاح الدين من سنة ٥٦٦ هـ ٩٧٠ م وهو يومئذ وزيراً للخليفة الماضد عبد الله بن يوسف آخر الخلفاء الفاطميين في بناء سور جديد بالحجر بدلا من أسوار للدينة القديمة التي كانت باللبن على أن يشمل السور الجديد جميع ما زاد على القاهرة في غربها إلى النيل (بسبب ما طرعه للنهر من الأرض) وفي جنوبها إلى مصر القديمة ، واستبقى أبواب بدر الجمالي لأنها مبنية بالحجر أمثن بناء وأروعه .

السور الأول :

لما تكلم للقرنزي في خططه على سور القاهرة (١) ذكر أن القائد جوهر بدأ من عام ٣٥٩ هـ - ٩٧٠ م ببناء السور الذي أنشأه من اللبن على مناخه الذي نزل فيه هو وجنوده حيث القاهرة الآن ثم أداره على القصر والجامع وأدخل في دائرة سور القصر برّ المعظم وجعل للقاهرة حارات للواصلين صحبته وصحبة مولاة للمزورتب في القصر جميع ما يحتاج إليه الخلفاء .

ومن جهة تعيين موقع السور وحدوده فإنه يستفاد مما ذكره للقرنزي عند الكلام على باب النصر وباب الفتوح وباب زويلة القديين وباب زويلة الحالي وباب البرقية وعلى جامع الحاكم وحارة بهله للدين وعلى غير ذلك من اللباني التي حدثت بين هذا السور وسور بدر الجمالي - يستفاد من كل ذلك أن مدينة القاهرة القديمة التي أنشأها جوهر القائد كانت واقعة بين مباني القاهرة الحالية وكانت محاطة بسور على جهاتها الأربع في المنطقة التي تمد اليوم من الجهة البحرية بخط يبدأ من رأس حارة الوسايمة من جهتها الشرقية حيث كان يبدأ السور البحري ثم يسير

(١) المخطط القرنزيه ج ١ ص ٣٧٧

إلى الغرب حتى يتقابل بشارع باب النصر عند نقطة واقعة على بعد عشرين متراً إلى شمال جامع الحاج محمود الحنو المعروف بجامع الشهداء حيث كان يقع في تلك النقطة باب القدس الذي كان بداخل باب النصر ومن هناك يسير السور إلى الغرب حتى يتقابل بشارع المزمدين الله (شارع باب الفتوح سابقاً) على رأس مدخل شارع بين السيارج حيث كان يقع في تلك النقطة باب القوس الذي كان داخلاً في باب الفتوح ، ثم يمتد السور في مكان الوجهة البحرية للمباني الواقعة في شارع بين السيارج إلى نهايته الغربية عند نقطة تجاه جامع حسن الزركشى ، وكان السور البحري لمدينة جوهر ينتهى عند تلك النقطة .

كان السور الغربي يبدأ من النقطة المذكورة ثم يسير متجهاً إلى الجنوب إلى أن يصل إلى رأس شارع أمير الجيوش الجوانى حيث يقع باب القوس الذي كان بداخل باب القنطرة ثم يسير السور إلى الجنوب في مكان الوجهة الغربية للمباني الواقعة بشارع الشمرانى البرانى وشارع بين السورين وشارع بين النهدين إلى باب الخوخة على رأس شارع قبو الزينة (وصوابه قبو الزينة) ثم يمتد السور بعد ذلك بالوجهة الغربية لمباني شارع جامع البنات إلى أن يلتقى برأس شارع الاستئناف الحالى حيث كانت خوخة الأمير حسين ثم يسير السور جنوباً إلى حيث مبنى محكمة الاستئناف على بعد ٢٠ متراً جنوب مدخل الاستئناف وعلى بعد عشرة أمتار في شمال البابا الغربي لمحكمة الاستئناف . وعند تلك النقطة كان يقع باب سمادة وهو آخر السور الغربي لمدينة جوهر .

وكان السور القبلى يبدأ من الكنف القبلى لباب سعادة ثم يسير إلى الشرق إلى شارع المنجلة من الجهة القبلىة ثم يمتد إلى شارع المنجدين من الغرب وبين شارع للمزمدين الله (شارع المناخية سابقاً) من الشرق وكان يقع باباً زويلة القديمان

الذات أنشأها جوهر في السور القبلى تجاه جامع سام بن نوح ومن الجامع
للاذكور يمتد السور القبلى حتى يصل إلى درب المحروق وإلى هذه النقطة ينتهى
السور القبلى .

أما السور الشرقى فكان يمتد إلى الشمال حيث موقع باب البرقية الأول ثم يمتد
من تلك النقطة إلى الشمال حتى يتلاقى بالسور البحرى عند النقطة التى يحددها اليوم
برج الظفر تقريباً .

هذه هى مواقع السور القدى أنشأها جوهر القائد حول مدينة القاهرة الأصلية ،
ولبى لهذا السور أثر اليوم .

السور الثانى :

لما تكلم للمقرزى فى خططه عن أسوار القاهرة فى أيام الدولة الفاطمية ذكر أن
السور الثانى بناه أمير الجيوش بدر الجمالى فى سنة ٥٤٨٠ - ١٠٨٧ م وزاد فيه
من الشمال الزيادة التى بين باب القوس الدين أنشأها جوهر القائد فى سور القاهرة
البحرى وبين السور الحالى الذى فيه باب النصر وباب الفتوح الحالىين ثم زاد فيه من
الجهة الجنوبية الزيادة التى فيما بين بابى زويلة القديمين اللذين أنشأهما جوهر فى سور
القاهرة القبلى وبين السور الذى فيه باب زويلة الحالى وجعل بدر الجمالى الأسوار التى
أنشأها من اللبن وأقام الأبواب من حجارة .

ويستفاد مما ذكره المقرزى ، عند الكلام على باب النصر وباب الفتوح وباب
زويلة وعلى جامع الحاكم وعلى حارة بهاء الدين وعلى السور الثالث القدى أنشأها
صلاح الدين يستفاد من كل ذلك أن الزيادة التى برز بها بدر الجمالى فى الجهة الشمالية
من سور جوهر هى التى تحد اليوم من الشمال بالسور الحجرى للوجود الآن الذى

يبدأ من النقطة القدي يشغلها اليوم برج الظفر ثم يسير إلى الغرب إلى أن يصل إلى باب النصر ثم إلى باب الفتوح ، وتحد هذه الزيادة من الغرب بسور كان يمتد إلى الجنوب التي يبدأ منها السور الغربي لمدينة جوهر ، وتحد من الجنوب بسور جوهر وتحد من الشرق بسور من اللبن كان يمتد من النقطة التي في أول الحد الشمالي من الشرق ومنها يسير إلى الجنوب بشكله المتعرج .

أما الزيادة التي برز بها بدر الجمالي في الجهة الجنوبية من سور جوهر ، فتحد اليوم من الشمال بسور جوهر ومن الغرب بسور من اللبن ثم يسير إلى الجنوب حيث كان موقع باب الفرج ثم يسير إلى الجنوب حيث ينتهي السور الغربي لهذه الزيادة عند موقع باب الخلق وتحد من الجنوب بسور من اللبن يسير إلى الشرق في مكان الوجهة القبليّة للبناني القائمة بالجهة الشمالية من شارع تحت الربع إلى أن يصل إلى النقطة حيث يقع باب زويله الحالي، ثم يمتد السور إلى الشرق عند مدخل حارة الروم حيث كان موقع خوخه أيدغمش ثم يسير من هذه النقطة إلى جهة الشرق في مكان الوجهة القبليّة للبناني الواقعة بجزء من شارع درب الاحمر الواقعة في حارة سمد الله ومنها تمتد إلى حيث ينتهي الحد القبلي عند البرج القدي يتبعه القاريء على السور للبنين على خريطة القاهرة الحالية وتحد من الشرق بسور القاهرة الحالي .

أشأ بدر إلى أسواره باللبن ماعدا الجزء الواقع بين بابي الفتوح والنصر فهو بالحجر إلى اليوم . وكذلك الأجزاء الواقعة على جانبي البابين المذكورين وعلى جانبي باب زويله فهي بالحجر على مسافة ١٢٠ مترا تقريبا من كل جانب وقد زال أثر الأسوار التي أنشأها بدر الجمالي باللبن وأقام صلاح الدين في مكانها بعض أجزاء منها أجزاء أخرى بالحجر في سيوره الثالث القدي سيأتي ذكره في قاهرة صلاح الدين .

أبواب القاهرة

كان للقاهرة ثمانية أبواب ، لكل جنب من أجنابها الأربعة بابان . ففي الجنوب باب زويلة وكان بابين في الأصل بفتحهما قبيلة زويلة من قبائل البربر وكانا عند مسجد أبي البناء وعند الحجارين (١) .

باب الفرج : يمكن تحقيق موقع هذا الباب بالضبط بأنك إذا سرت في حارة الجداوى من ناحية السكرية تقابل على يسارك جامع المؤيد فحمام المؤيد فإثناء صغير به ضريح لمن يدعى « سيد فرج » وهو ليس سوى باب الفرج ، وفي الجهة البحرية التي يسلك منها إلى عين شمس .

باب النصر : موضعه الأول بالرحبة التي أمام جامع الحاكم قرب المكان الذي يشذله الباب الحالي . وقد ذكر للقرنيزي أنه رأى جزءا من جانبه المواجه للركن الغربي للمدرسة القاصدية حيث كانت هناك الرحبة المذكورة تفصل هذه المدرسة عند البابين لجامع الحاكم .

باب الفتوح : ذكر القرنيزي أنه كان لا يزال يوجد في عصره من باب الفتوح الأول أجزاء من عقده وعضادته اليسرى وبعض أسطر من الكتابة

(١) مسجد ابن البناء هو الذى يعرف اليوم باسم زاوية العقادين بجوار سبيل المقادين بشارع المياخيليه وتسميها العامة زاوية سام بن نوح وقد بني المسجد المذكور الحاكم بأمر الله وما ابن البناء سنة ٥٩٨ هـ وقد ازبل بابا زويلة الاصليان وبني أمير الجيوش بدر الجمالي بدلها باب زويلة الكبير القائم إلى اليوم . وتسميه العامة بوابة التولى حيث كان يجلس في مدخله متولى حبه القاهره - تعليق محمد بك رمزي : النجوم الزاهرة ج ٤ ص ٢٧ .

(٢) محمود أحمد : مجلة الهندسة - ١٩٣٤ ص ٣٣٢

الكوفية . وكانت هذه الأجزاء على رأس حارة بهاء الدين من قبلها دون جدار الجامع الحاكمي (١) .

وكان في الجهة الشرقية من القاهرة وهي الجهة التي يسلك منها إلى الجبل بابان هما :

باب القراطين (المحروق) : يمكن تمييز موقع هذا الباب تعييناً أقرب إلى الضبط نظراً لأن موقع الباب الذي حل محله لا يزال معروفًا باسم الباب لمحروق (٢) ويرى الأستاذ كريستوفر أن موقع باب القراطين الأول كان على مسافة خمسين ذراعاً من الباب المحروق الحالي (٣) .

وباب البرقية : ليس من السهل تحديد موقع باب البرقية لأن الفصل الذي بحث فيه للقرنيزي أبواب القاهرة وقف عند باب البرقية ، ومن المحتمل جداً أن موقعه كان شمالي الباب المحروق وبالتقريب من الجامع الأزهر وقد نسب إلى جنود برقة ثم عرف بعد بياض الغريب .

أما الجهة الغربية من القاهرة وهي المطلقة على الخليج الكبير فقد كان فيها باب سعادة : أول أبواب السور الغربي من الجنوب . وقد عرف باسم سعاد بن حيان غلام للمز لدين الله وأحد قواده . لأنه لما قدم من بلاد المغرب بعد بناء القاهرة

(١) الخطة المقرنية : ج ٢١٠ و ٢١١ - طبعة النيل

(٢) أطلق على الباب المحروق هذا الاسم بسبب ما فعله ٧٠٠ مملوك هربوا من القاهرة عندما علموا بقتل القارس الأمير اقطاي في ٢١ شعبان ٦٥٢ هـ في أثناء الليل تركوا منازلهم وتقدموا نحو هذا الباب فوجدوه مغلقاً كما كانت العادة في ذلك العصر إذا كانت تطلق أبواب مدينة القاهرة في الليل فاوقدوا النار في الباب حتى سقط من ذلك الحريق وخرجوا منه ومن ذلك الوقت عرف هذا الباب بالباب المحروق القرنيزي - طبعة النيل ج ٢ ص ٢١٣ .

K.A.C. Creswell: The Foundation of Cairo, P. 272 (٣)

نزل بالجيزة وخرج جوهر إلى لقائه وعاد معه إلى القاهرة ودخلها من هذا الباب، فعرف به وقيل له باب سمادة ويحدد موقع هذا الباب بالضبط بالطرف الجنوبي للجانب الغربي من سور القاهرة وبالتقرب من الركن الشمالي الشرقي للحكمة الاستثناف .

باب القنطرة أو الجسر : عرف بذلك الإسم لأن جوهر بنى هناك قنطرة فوق الخليج الذى بظاهر القاهرة ليسير عليها إلى القس عند مسير القرامطة إلى مصر (٣٦٠ هـ) وكان موضعه على مدخل شارع أمير الجيوش الجوانى تجاه مدرسة باب الشمرية (١) . وقد سمى العامة باب القنطرة خطأ باسم باب الشمرية فى حين أن ذلك الباب كان قائماً غربى الخليج بميدان المدوى بين شارعى المدوى وسوق الجراية وكانت قنطرة أخرى عند ذلك الباب ذكرها للقريزى باسم قنطرة باب الشمرية وتعرف فى أيامنا باسم الحروبى والمدوى والخروبى مدفونان فى مسجد بجوار موقع الباب للذكور .

الجامع الأزهر

بعد عام من فتح الفاطميين مصر كان جوهر قد أتم إنشاء القاهرة ، فكان أول أعماله بناء الجامع الأزهر . وقد أكد القريزى أن القائد جوهر بدأ عمارته فى يوم السبت لست يقين من جمادى الأولى سنة ٣٥٩ هـ لما أتم تشييده بسد عامين فتح للصلاة فى شهر رمضان سنة ٣٦١ هـ (يونية ٩٧٢ م) (٢) ويمد الأزهر أول عمل فى معامرى بناء الفاطميون فى مصر لا يزال قائماً لليوم .

(١) تعليق محمد رمزى بك بالنجوم الزاهرة ج ٤ ص ٣٩

(٢) وفيات الأعيان لابن خلكان ج ١ ص ١٤٩ ، صبح الاعشى للقائشندى ج ٣

ص ٣٦٤ ، حسن المحاضرة للسيوطى ، مطبعة الموسوعات ج ٢ ص ١٥٤ .

بني الجامع الأزهر في شرق المدينة على مقربة من القصر الكبير الذي كان موجوداً حينذاك بين حي الدبلم وحي الترك . وكتب جوهر بدائرة القبة في الرواق الأعلى نقشاً تاريخه عام ٣٦٠ هـ تجمد نصه في الخطط للقرنيزية وقد اندثر هذا النقش .

ويمد التخطيط الأصلي الذي أنشئ هذا الجامع عليه من الأمور الصعبة التي لا يمكن الإهتمام إليها . فقد زاد كثير من الخلفاء الفاطميين في بنائه وأعيد تجديد أجزاء كثيرة منه في خلال القرون اللاحقة كما أضيفت إليه زيادات عدة ويحتوي الجامع على بقية ضئيلة من الأفاريز المشتملة على كتابات كوفية التي تعد من مميزات العمارة الفاطمية فإن جل أجزاءه الحالية من عصر متأخر إذ أضاف للاستنصر والحافظ في بيان الجامع بعض أجزاءه . ثم قطع عنه الأيوبيون كثيراً مما أوقفه عليه الحاكم ومنع صلاح الدين الخطبة عنه . وكان قايتباي أكثر الناس رعاية للجامع في القرن التاسع . وإنشاء الفاطميين لهذا المسجد لا يفسر الإسم الذي أطلق عليه ، فقد قيل أن الأزهر إشارة إلى الزهراء وهو لقب السيدة فاطمة التي سميت باسمها مقصورة في المسجد وقال بعضهم أن هذه التسمية نسبة إلى التصور الزاهرة التي بنيت حين أنشئت القاهرة ، وقال آخرون إنما سمى كذلك تفاقلاً بما سيكون له من الشأن والسكينة بازدهار العلوم فيه . وكان الخليفة العزيز الفاطمي أول من حول الأزهر من مسجد تقام فيه الشعائر الدينية إلى جامعة للشيعة تدرس فيها العلوم ويروج فيها المذهب الفاطمي كما كان أول من أجرى الأرزاق على طلاب العلم فيه بمن وفدا ومن جميع نواحي العالم الإسلامي .

(١) نص هذا النقش : بما أمر بيناته عبدالله ووليه أبو تميم معد ، والامام العزيز بن الله ، أمير المؤمنين صلوات الله عليه وعلى آبائه وأبنائه الأكرمين ، على يد عبده جوهر الكاتب الصقلي في سنة ٣٦٠ هـ (١٧١ م)

أخطاط القاهرة

نتقل الآن إلى ذكراهم الأحياء التي اشتملت عليها القاهرة للعرية :

سبق القول أنه في اليوم الذي خط فيه جوهر المدينة الجديدة أخذت كل قبيلة من القبائل التي تآلف منها الجيش الفاطمي خطه عرفت باسمها وقد كان أهم تلك الخطوط أو الحارات ما يأتي :

١ — حارة الروم : كانت حارتين : وهي التي لم تزل معروفة إلى اليوم بنفس الإسم بقسم درب الأحمر وحارة الروم الجوانية بقرب باب النصر على يسار الداخل إلى القاهرة . وقد نسبت إلى الأشراف الجوانيين .

٢ — حارة برجوان : منسوبة إلى برجوان أحد خدمة القصر في أيام العزيز بالله زار المييدي . وصار في أيام الحاكم بأمر الله مدير مملكته حتى قتله في أحد قصوره .

٣ — حارة زويلة : منسوبة إلى زويلة إحدى قبائل البربر التي وفدت على مصر صحبة القائد جوهر وكانت خطة كبيرة .

٤ — حارة الجدرية : وهي طائفة منسوبة إلى جوهر خادم عبيد الله المهدي أبو الخلفاء الفاطميين . وقد سكنها اليهود بعدهم إلى أن بلغ الحاكم أنهم يزأون بالمسلمين فسد عليهم أبوابها وحرقتهم ليلا .

• — حارة الأمراء : بالقرب من باب الزهومة (١) وقد عرفت فيما بعد باسم درب شمس للدولة توران شاه بن أيوب شقيق السلطان صلاح الدين ، وكانت بهادار الوزير عباس

(١) باب الزهومة أحد الأبواب الغربية للقصر الكبير وموقعه اليوم الدكاكين الواقعة في أول شارع خان الخليلي على يسار داخله من جهة شارع القمصانجي من شارع بين القصرين — تعليق محمد رمزي — النجوم الزاهرة ج٤ ، ص ٣٦ .

٦ — حارة الديلم : منسوبة إلى الديلم الذين أتوا برفقة « فتكين » غلام المز ابن بويه الديلمى الذى تغلب على الشام فى عهد المز وقاتل جوهر واستنصر بالقرامطة لكنه وقع فى أسر العزيز بالله فى مدينة الرملة وساقه إلى القاهرة فمامله بالحسنى وأزله مع أصحابه بهذه النخطة وكانت بها دار الصالح طلائع بن رزيك .

٧ — حارة الباطنية وتعرف بقوم أتوا مع المز ولما قسم العطاء بين الناس لم يعظم شيئاً فقالوا « رحنا نحن فى الباطل » فسمو الباطلية (١) .

٨ — حارة الكافورى : كانت بستانا للأستاذ الملك كافورا لأخشيدي ثم صار من بعده للخلفاء المصريين .

٩ — حارة قائد القواد : (درب ملوخية) سكنه فى بادىء الأمر حسين بن جوهر القائد الملقب بقائد القواد ثم نسبت هذه الحارة إلى ملوخية أحد فراشى القصر ويعرف هذا الدرب اليوم باسم حارة درب الشوك .

١٠ — حارة المطوف منسوبة إلى الخادم عطوف أحد خدم القصر الفاطمى وتدل على موقعها المنطقة التى يتوسطها اليوم حارة المطوف بالقرب من باب النصر .

١١ — الوزيرية : منسوبة إلى الوزير يعقوب بن كلس وكانت حارة كبيرة .

١٢ — حارة المحمودية : أو المسامدة منسوبة إلى الطائفة المعروفة بالمحمودية التى قدمت أيام العزيز بالله الفاطمى إلى مصر .

وعلى مر الأيام زاد عدد هذه الخطط وتطورت كثير فى أيام الأيوبيين والمماليك مما لا يتسع هذا البحث لشرحه ووصفه مفصلاً (٢) .

(١) يدل على موقعها اليوم شارع وحارة الباطنية فى الجنوب الشرقى لجامع الأزهر .

(٢) تبحث المراجع المفصلة - كالقريزى وعلى باشا مبارك ورائيس .

القصور الفاطمية

وصف للقرنيزي قصور الفواطم فيما لا يقل عن مائتي صنحة . وقد حفر جوهر أساس القصر الكبير في ١٧ شعبان ٣٥٨ هـ (٦ يوليو ٩٦٩) واستمر العمل في أقسامه للمتعددة عدة سنين . واشتمل هذا القصر في داخله على عدة مناظر وقاعات وقصور صغيرة أهمها جهو الذهب والاقبال والظفر والشجرة وقصر الشوك والازرد والتسيم والبحر والحريم .

ولما آلت الخلافة إلى العزيز أضاف إلى القصر قاعة الذهب والديوان الكبير وكانت للقصر الكبير وحده تسعة أبواب أهمها وأجلها باب الذهب ثم باب البحر وباب الزمر وباب السميد وباب قصر للشوك وباب الديلم وباب تربة الزعفران ثم باب الزهومة . وكان باب الذهب تدخل منه القوات العسكرية وجميع أهل الدولة في يوم الإثنين والخميس لقاعة الذهب . وكان هناك أمام القصر ميدان فسيح تعرض فيه الجنود في يومى العيدين .

أما القصر الصغير فقد أمر ببنائه العزيز بالله عام ٤٥٠ هـ / ١٠٥٨ وقد قال المسبحي عنه « لم يبن مثله في شرق ولا في غرب » وكانت له عدة بوابات أهمها باب السباط وباب التبانين وباب الزمرد ، وكان يتصل بالقصر الكبير بواسطة نفق تحت الأرض وكان ينزل منه الخليفة متطياً ظهر بقلته تحيط به نقيات للقصر .

ولم يتم بناء القصر الصغير إلا في عام ٤٥٧ هـ / ١٠٦٥ م في خلافة المنتصر وقد شغل موقعه فيما بعد للمارستان الكبير للنصوري إلى جوار حارة برجوان .

وشيد الفاطميون دوراً كثيرة ومناظر جميلة منها دار الضيافة، ودار الوزارة والسكبرى ودار الترب ودار الذهب . وقد بنى دار الوزارة (الدار الأفضلية) أمير

الجيش الأفضل بن بدر الجمالي ثم سكنها أرباب السيوف أمراء الجيوش المصرية
بالتوالي إلى أن تولى الأيوبيون الحكم في مصر فسكنها السلطان الملك الصالح وولده
دار الحكمة .

وفي أيام الخاكم بأمر الله شيدت دار العلم (دار الحكمة) بجوار القصر الغربي ،
وقد افتتحت في اليوم العاشر من جمادى الآخرة سنة ٥٣٩٥ هـ ، واستمرت تؤدي
رسالتها حتى أبطاها الأفضل ابن القائد بدر الجمالي ، وربما يكون أحسن وصف لقصور
القاهرة للمزية ما جاء في تلك الوثيقة التي ثبتت عظمة العصر الفاطمي وأهتسه حين
زار الخليفة رسولا الملك عموري (أماريك) سنة ٥٦٢ هـ / ١١٦٧ م ليفقدا معه باسم
سيدهما تحالفاً قوامه أن يدفع الخليفة للصليبيين مائتي ألف دينار مجعلة ومثلها مؤجلة
نظير دفاعهم عن مصر وصدوم الأعداء عنها .

وقد وصف غليوم رئيس أساقفة صور مؤرخ الحرب الصليبية زيارة الرسولين
الصليبيين وعبر عن حماسهما وأعجابهما بمظمة ما رأوه وروعه، وقد نقل جستاف
شلمبرجيه إلى الفرنسية بعض ما كتبه غليوم في هذا الصدد ، كما لحص لين بول بعضه
في كتابه عن تاريخ مصر وكتابه عن صلاح الدين (٢)

« سار السفراء الفرنج يقودهم الوزير شاور بنفسه إلى قصر له رونق وبهجة
عظيمة وفيه زخارف أنيقة نظرة ، وكان هؤلاء المبعوثون متأثرين بما حولهم جدد
التأثير دون أن يتطرق إلى نفوسهم أي خوف أو رهبة ، ووجدوا في القصر حراساً
عديدين وسار الحراس في طليعة اللوكب وسيوفهم مسالوة . وقادوا الفرنج في ممرات

(١) المخطط المغربي نقله عن ابن عبد الظاهر ج ٢ ص ٣٠١ ، ٣٠٢ - طبعة النيل

(٢) كنوز الفاطميين للدكتور زكي محمد حسن ص ٧١ - ٧٥

طويلة وضيقة وأقنية حالكة الظلمة لا يستطيع الإنسان أن يتبين فيها شيئاً . وربما كان المقصود بذلك بث الرهبة إلى قلوبهم وزيادة التأثير فيهم . فلما خرجوا إلى النور اعترضتهم أبواب كثيرة متعاقبة . كان يسهر على كل منها عدد من الحراس المسلحين الذين كانوا ينهضون عند اقتراب شاوور ويحيونه باحترام . ثم وصل اللوكب إلى فناء مكشوف تحيط به أروقة ذات أعمدة ، وأرضيته مرصوفة بأنواع من الرخام متعددة الألوان . وفيها تذهيب خارق العادة بنصاراته وبهائه ، كما كانت ألواح السقف تزينها الزخارف الذهبية الجميلة .

كان كل ذلك موقفاً رائعاً وهيباً رائعاً بحيث لا يملك أشغل الناس بالا وأكثرهم هماً إلى أن يقف للاعجاب به ، وكان في وسط الفناء نافورة يجرى الماء الصافي منها في أنابيب من الذهب والفضة إلى أحواض وقنوات مرصوفة بالرخام ، وكانت زفر في الفناء أنواع لا حد لها من الطيور الجميلة ذات الألوان اللطيفة في النادرة مجلوبة من شتى أنحاء الشرق ، ولم يكن أحد يرى هذه الطيور دون أن تصيبه الحيرة والدهشة إعجاباً بها ، ودون أن يقول أن الطبيعة كانت تموج وتلمب حيث كوت هذه المخلوقات ومن هذه الطيور ما كان يلزم النافورة ، ومنها ما كان يظل بعيداً عنها — كل بحسب طبيعته ، وكان لكل منها هن الغذاء ما يوافقه .

وهنا أستأذنت الحراس الذين كانوا يسيرون في ممية الفرسان للفرنج حتى ذلك الوقت في الرجوع وحل محلهم بعض العظماء من الأمراء المقربين إلى الخليفة نفسه .

وصار هؤلاء الأمراء بالسفيرين الفرنجيين في أقنية أشد جمالا وإبداعاً ثم إلى حديقة لطيفة غناء لم تكن الحديقة الأولى شيئاً بجانبها ، ورأوا في هذه الحديقة

أنواعها من الحيوانات ذوات الأربع غريبة بحيث يتهم اللرب بالكذب إذا وصفها
وتحدث عنها - وبحيث لا يحتمطع أى مصور أن يتخيل أو أن يحلم بمثل هذه
الكائنات العجبية ، فإن الترب لم ير قط مثل هذه الحيوانات ولم يكن يعرفها إلا بما
كان يسمع من الأقوال .

وبعد أن عبروا أبواباً عديدة أخرى - وساروا في تعاريج كثيرة كانوا يرون
فيها أشياء جديدة تزيدهم دهشة وإعجاباً . وصل الفرنج إلى القصر الكبير حيث
يقطن الخليفة . وفاق هذا القصر كل ما شاهدوه قبل ذلك . وكانت أفنتيه تفيض
بالمحاررين للمسلمين متقلدين أسلحتهم ، وعليهم الزرد والدرع تلمع بالذهب والفضة
وعليهم سياء الافتخار بما كانوا يحرسون من السكنوز .

وأدخل اللبموثون في قاعة واحدة تقسمها ستارة كبيرة من خيوط الذهب والحبر
المختلف الألوان . وعليها رسوم الحيوان والطيور وبعض صور آدمية ، وكانت
تلمع بما عليها من اللباقت والزمرد والأحجار النفيدة . ولم يكن في هذه القاعة
أحد ، لكن شاور خر را كما فور دخوله ونهض واقفا ثم قبل الأرض ثانياً وخلع
السيف الذى كان يلمع في عنقه ثم خر ساجداً مرة ثالثة في ذلة وخشوع كأنه يسجد لله
وارتفعت الحبال فجأة وانكشفت الستارة الحربية الذهبية بسرعة البرق كأنها ملاءة
خفيفة وظهر الخليفة الطفل (السلطان الماضد) لأعين الفرنج للبموثين ، وكان على
وجه هذا الأمير نقاب يخفيه تماماً وهو جالس على عرش من الذهب مرصع بالجواهر
والأحجار النفيسة .

المعز لدين الله وبناء المقس

كان الخلفاء الفاطميين من أعظم الملوك الذين حكموا مصر ، وكان المعز نفسه حاكما قادرا أدار بنفسه البلاد بمقدرة نادرة وكان زهبا عادلا يشرف على القضاء ويقود الجيش الذي اعتمد عليه في الدفاع عن اقبلاذ — وللمعز هو الذي بنى مرفأ جديدا للسفن فى اللقس شمال مرفأى الروضة ومصر (بالقرب من موقع ميدان — رمسيس الحالى) ، ولقد ظلت اللقس مرفأ القاهرة حتى تحول النيل عن مجراه — وظهرت بولاق . وشاهد الرحالة « ناصر خسرو » عـددة سفن للمعز فى عام ١٠٤٧ م . وكان طول السفينة الواحدة ٢٧٥ قدما وعرضها ١١٠ اقدام .

ومع أن المعز كان حازما محبا للعمل فقد كان ميالا إلى للظاهر الرسمية فكان يذهب فى موكب فخم لحفل قطع الخليج . وكان يتدق فى الاتفاق على كسوة الكعبة فى مكة للمسكرة . وكان يهتم لسكى تكون القاهرة مدينة ذات فخامة وترف وغنى وقد صرفت زوجه مبلغا على مسجدها فى القرانة والذى وضع تصميمه « الحسن ابن عبد العزيز الفارسى » وتولى زخرفته الفنانون الذين جاءوا من البصرة ، وقد شيد على طراز الجامع الأزهر تحيط به الاروقة المزخرفة البديعة . ولم يزل جامع القرانة قائما إلى أن احترق فى السنة التى احترق فيها جامع عمرو بن العاص سنة أربع وستين وخمسائة عند نزول « امريك » ملك بيت للقدس القاهرة اثناء حصاره لها .

وكانت الأموال اللازمة لقصر المعز وللثلاثين ألف من اتباعه وما دعت إليه مظاهر الترف نجى كضرائب أو أقساط تجمع فى دار الامارة القديمة وكانت مجاورة لمسجد ابن طولون . وقد قال بعض المؤرخين أنه فى يوم واحد جمع من مدينة مصر فى أسعد مجدها مبلغا يتفاوت بين ٢٦٠٠٠ جنية و ٦٢٠٠٠ جنية وكان التعامل بالعملة الفاطمية وليس بالعملة الصابية .

المعز بن باقره (٣٦٥ - ٣٨٦ هـ)

ولما توفي للمعز بويح ابنه المعز بالخلافة وعين يعقوب بن كلس وزيرا له وقد شاطر المعز اباة صفاته السياسية فلم تضعف من همته مظاهر الترف وشيد أسطولا لمحاربة امبراطور « باسيل » وانتصر للقائد « جوهر » في عدة معارك بالشام وقد عرف عهده في مصر بالسلم والرخاء . وكان مولعا باقتناء الكتب فجمع منها مكتبة كبيرة خصص لها قاعات في قصره سماها « خزانة الكتب » وبذل الأموال في تشجيع كتابة المؤلفات المهمة في التاريخ والآدب والفقه . وكانت بعض الكتب بخط المؤلفين أنفسهم كالحليل بن أحمد والطبرى (١) .

ومن أثار المعز جامع الحاكم الذي أمر بينائه في شهر رمضان سنة ثمانين وثلاثمائة هجرية . وقد اتم جانبا كبيرا منه في مدة عام وخطب فيه المعز وصلى الجمعة في اليوم الرابع من شهر رمضان عام ٣٨١ هـ . ولما تولى للعرش ابنه الحاكم أمر وزيره « يعقوب بن كلس » بأن يتم بناء الجامع ويكمل زخرفته ومثدته . فبدأ عمله في عام ٣٩٣ هـ وقدر للنفقة عليه أربعين ألف دينار وانتهى منه في عام ٤٠٣ هـ وعند انجازه علق على سائر أبوابه استارا ديقية عملت له وعلق فيه أربعة تناوير فضية وكثيرا من القناديل الفضية كذلك ، وفرش أرضه بالسجاد ونصب فيه للنبير .

جامع الحاكم بأمر الله

عرف أولا بجامع الخطبة ثم جامع الحاكم وقيل له الجامع الأنور (كالآزهر) ولقد مرت عليه من حوادث الأيام ما لا تقل عن حوادث جامع عمرو . فلما احتل الصليبيون للقاهرة في سنة ١١٦٧ حولوا جانبا منه إلى كنيسة ، وباستيلاء صلاح الدين على مصر أبطل استخدام الأزهر وجعل جامع الحاكم المسجد الرسمي للدولة .

(١) الدكتور زكي محمد حسن : كنوز الفاطميين ١٩٣٧ - القاهرة

وفي اليوم الثالث عشر من ذى الحجة عام اثنين وسبعائة زلزلت أرض مصر والقاهرة فأصيب الجامع الحاكم بسقوط عدد كثير من بدناته وخربت أعالي مئذنتيه وتصدعت سقوفه وجدرانه . وفي العام التالي أمر ركن الدين بيبرس الجاشنكير بتعمير ما تهدم منه — وإعادة ما سقط من البدنات فأعيدت وأقام سقوفه ورممه فبادر جديدا .

ولما كتب المؤرخ للقرن التاسع المشهورة في ابتداء القرن التاسع الهجري كان الجامع مخربا وسقفه مهشما وآثار النار والحراب بادية على جدرانه . ومنذ ذلك الحين لم يقف المسجد على قدميه وكانت الفترة السعيدة التي مرت عليه لما أقيمت في بعض اجزائه دار الآثار العربية خلال القرن التاسع عشر . وكانت لانزال بعض النقوش والكتابات الكوفية ظاهرة على جدرانه تدل على جمال فنه .

وجامع الحاكم عمل أرى نادر ، ومئذنتاه جدداهما اثر زلزال عام ٧٠٣ هـ بيبرس الجاشنكير . قاعدة مربعة تتحول إلى شكل مشمن الاضلاع ويتطور إلى شكل أسطواني يحترقها سلم لولبي من الداخل على جوانبه طاقات ذات شرفات يستخدمها المؤذن .

تولى الحاكم بأمر الله (٣٨٦ — ٤١٤ هـ) الخلافة الفاطمية وعمره أحد عشر سنة وكان شخصية متناقضة عجيبة أفاضت كتب التاريخ بذكر الكثير من أحواله وحوادثه . ولما يدهشنا أننا بينما نقرأ عنه كل تلك التناقضات نراه في جامعهم العظيم يراقب زخرفته وقبوه ، أو في داره — لم التي أنشأها بجوار القصر الغربي في سنة ٣٩٥ هـ — والتي حمل إليها الكتب من خزائن القصور ووقف عليها أما كن ينفق من ريعها ، وكان الترض من دار الحكمة لتشجيع الناس على المطالعة والدرس وكانت ندوة يجتمع فيها علماء الدين والعلم والأدب والتاريخ للمناقشة والتبحر في علوم الدنيا والدين .

ولما مات الحاكم تولى ابنه الظاهر لاهزاز دين الله أبو الحسن على فأباح ما منعه
أبوه الحاكم فشرب الخمر وسمح باحتسائها . وكان ضيف الرأي منصرفاً إلى اللهو
وكثر في أيامه الفتن العسكرية فلا تخمد فتنه حتى تمعها أخرى وضاعت أبواب
الرزق وعزت الأقوات وتفاقم الأمر من شدة النلاء فصاح الناس « الجوع يا أمير
المؤمنين . لم يصنع بنا هذا أبوك ولا جدك . فإله الله في أمرنا » .

ولما توفي الظاهر تولى ابنه للتصير (٤٢٧-٤٨٧ هـ) وكانت سنة عند مبايعته
لا تزيد على سبع سنوات . وكانت أحوال البلاد قد هدأت قليلاً كما شهد الرحالة
الفارسي ناصر خسرو عند زيارته لمصر بين عامي (١٠٤٧ - ١٠٤٩ م) فقد قال
أن الصيارفة وتجار الجواهر تركوا حوانيتهم دون أن يتلقوا أبوابها في أوجه
الصوص وكان عدد الحوانيت في القاهرة أكثر من عشرين ألفاً كلها ملك الخليفة
يدر الواحد منها عليه نحو عشرة دنائير شهرياً . وكان يملك أيضاً عشرين ألف
منزل يتألف الواحد منها من ست طبقات وكان إجمار الواحد منها سبعون جنيتها
في السنة . وكانت تلك للنازل مشيدة بالحجر ويفصل كل منزل عن الآخر حديقة
غناء . ولم يكن لقاهرة أسوارها فقد هدم السور القديم الأول وتهدمت أجزاءه
ولم يكن قد ابتدئ في بناء السور الثاني (شيد بعد ذلك بأربعين سنة) وكانت
تلك البيوت الشاهقة التي وصفها الرحالة مشيدة على نمق الاستحكامات . وكل قصر
منها يشبه قلعة مصفرة . وكانت للسافة بين القاهرة ومصر تقدر بميل واحد ، تناثرت
فيها البساتين ومناظر الضواحي وتمرها مياه النيل في أثناء الفيضان .

وفي أثناء إقامة « ناصر خسرو » اشتد الجفاء بين الأحزاب السياسية ولكن
الوزير القادر ليازوري استطاع كبح جماحها مدة تسع سنوات وجاهد للقضاء على
الجماعة التي نشبت أظفارها بمنزله كبسات من الللال بمخازن يوسف بالقرب من
مصر القديمة .

ولقد أبدل الخليفة أربعين وزيراً من وزارته في مدة تسع سنوات فضاعت هبة الحكومة عند الشعب وكان الحكام الحقيقيون لها هم الجنود الترك الذين اتفقوا مع البربر وطردهوا الجنود السود من القاهرة . وتبت هؤلاء أقدامهم في بعض نواحي الوجه القبلي فأزعجوا سكانها وحاول البربر أيضاً الاستيلاء على الدلتا فأفسدوا مسالك الري ليفتسكوا بالفلاحين حينما انقرد الترك بالعاصمة فأتلفوا تصور الخليفة للقضاء ونهبوا مجموعاتها الثمينة من الجواهرات النفيسة مقابل متأخرات رواتبهم وبعد ما اتموا من نهب القصر دخلوا مدافن أجداد الخليفة وأخرجوا منها كل ما وجدوه فيها من التحف ثم عمدوا إلى خزانة الكتب فأخرجوا منها - آلافاً من الكتب في جملتها ٢٤٠٠ مصحفاً . وقيل أن عدد مؤلفاتها كان مائة ألف وأخذ الناس مغلقاتها لإصلاح نظامهم ولإيقاد نيرانهم . وما لم يحرقوه منها سفت عليه الرياح فصار تلالا عرفت بتلال الكتب .

وتصادف أن قصر النيل في فيضانه مدة خمس سنوات فهدد البلاد بالمجاعة وامتد الجوع إلى سنة ٤٦٤ هـ . وكان أشده سنة ٤٦٢ هـ . ثم توالى القللال التي اقتضت الإسراف في الحبوب الخزونة وندرت الحنطة وبلغ ثمن الأردب الواحد مائة دينار والقط ثلاثة دنانير والسكر خمسة دنانير (إذا وجد) ورافق هذا القلاء وباء مكث صبح سنين ، فلم يبق من يزرع . وأخيراً لما لم يجد الناس حيوانا يقتلونه لياً كاره اختطفوا بعضهم بعضاً وباع القصابون لحم الإنسان ، ثم جاء الطاعون فكان يحصد أسرة بعد أسرة . وكان كثير من أعيان البلاد يحاولون أن يرتزقوا من الخدمة في الحمامات العامة واضطر الخليفة في نهاية الأمر بمد أن تخلى عنه رجاله وحاشيته حتى زوجه وبناته وقد هجرته إلى بنسداد إلى أن اضطرته الظروف أن يعيش على رغيفين تصدقت عليه بهما إبنه عالم . غير أن السنوات السبع كانت على وشك الانتهاء . وقد قامت مصر في أثناءها ما لم تره في أشد عصورها ظلاما وكان المستنصر قد التجأ

إلى حاكم سورية الأرميني « بدر الجمالي » فكتب إليه ليحيى على رأس جيشه إلى مصر ليوليه عليها فقبل بدر المحيى إليها وكان عبداً رفعته كفاءته للمنازة إلى الناصب السامية ، فولى إمارة دمشق ثم عكا .

أبواب بدر الجمالي

وصل بدر الجمالي إلى القاهرة في يوم الأربعاء ٢٩ جمادى الأولى سنة ٤٦٧ هـ / ١٠٧٩ وقابل الخليفة . وفي ليلة من الليالي دعا أمراء البلاد إلى وليمة أولها لهم في منزله وبيت مع أصحابه أن القوم إذا أمسى عليهم الليل فليتم لابدهم يحتاجون إلى الخلاء فمن قام منهم قتل . فلبى الأمراء دعوته وظلوا نهارهم عنده وباتوا مطمئنين وما طلع النهار حتى صارت رءوسهم بين يديه واستولى أصحابه على دور الأمراء فقويت شوكته وعظم أمره وخلع عليه للتصريح والطيلسات وقليد وزارة السيف والقلم وزيد في ألقابه لقب « أمير الجيوش » كمثل قضاة المسلمين وهاذى دعاة المؤمنين ولما أعاد النظام إلى نصابه في القاهرة انجبه فاصداً أقاليم القطر ليقضى على فتنها . فأخضع البربر والسودانيين والعرب ، وأعاد الطمانينة إلى قلوب الفلاحين . فازداد المدخل وشعر الأهلون بالرفاهية والرخاء مدة عشرين سنة كاملة . وعادت سطوة الخليفة السياسية والدينية إلى الديار المصرية وعادت مكة إلى مبايعة المنتصر بعدد أن قضت خمس سنوات تخطب للخليفة القائم بأمر الله المباسي في بغداد .

تنسبت القاهرة الصمداء مدة حكم الوزير بدر الجمالي . فمنذ مضي قرن على بناء الخليفة المميز للقصر العربي ومنظرة الأؤلوة لم يصف إلا الشيء القليل على عمارته ، وجاء المنتصر بفضل الإمامة في القصر الذي شيده بالمطرية حيث أقام جوعظاً .

وكان أول ماوجه إليه بدر همته — تحصين القاهرة ضد النزوات الخارجية

أو قن الجنود الداخلية . وكان سور القاهرة قد تم بنائه أمام نحو مساحة المدينة التي ازدادت وزحفت مبانيها خارج أبوابها الشمالية والجنوبية التي بناها القائد جوهر . فهدم بدر هذه الأبواب وبناها من الحجارة (١٠٨٧ — ١٠٩١) وجعل للمدينة تضم مساحة أكبر من الأولى . فمثلا أخذ حتى الروم في الجنوب إلى داخل السور وكان في خارجه ثم أقام السور من اللبن وقد زاده صلاح الدين فيما بعد — وزاد عند باب القصر الرحبة التي تجلده جامع الحاكم إلى باب النصر وتلك الأبواب الثلاثة لم تتغير إلى يومنا هذا — غير أن باب زويلة خفض قليلا من أبراجه لكي يتسع لبناء مئذنتي جامع قنويد في أثناء القرن الخامس عشر — الميلادي وتعتبر هذه الأبواب الثلاثة من من أعظم آثار العصر الفاطمي . وقد بناها ثلاثة أخوة وفدوا من أديس للمدينة الأرمنية الأصل التي عرفها بدر في أثناء فتوحاته ، وقيل أن كل أخ منهم شيد بابا .

وتمت مصر أكثر من ستين عاما تحت حكم بدر الجمالي إلى أن توفي في القاهرة وهو في الثمانين بعد حكم دام عشرين سنة ، وخلفه الأفضل وكان فاضلا حكيما اتدرب على أبيه وقد تمتع بجميع الألقاب والأمتيازات التي كانت لأبيه أمير الجيوش وظل في منصبه حتى أمر بقتله الخليفة الأمر في عام ١١٢١ وتولى الأمر من بعده ابنه « أبو علي » في عام ١١٢١ . ولما قتل وهو في طريقه إلى ميدان لسب السكرة خلفه أحد مماليك الأفضل وأسمه « يانس » (١) ثم جاء من بعده « بهرام » للسيحي الذي تربع في كرسى الوزارة حتى عام ١١٣٧ م .

(١) ينسب إليه حي (حارة) اليانسية وكانت واقعة خارج باب زويلة وتتصل اليوم

بالدرب الأحمر .

الصالح طلائع

قتل الخليفة الأمر في ذي القعدة (٥٥٢٤) وهو في طريقه إلى زيارة معشوقته البدوية في جزيرة الروضة وكان عمره ٣٥ سنة . ومن أعماله التي تذكر له بناءه مسجد الأقر بين القهريين . وكانت عقوده الداخلية من الأجر القيمة على أعمدة من الرخام وقد نقش على أبرز المعبد بالكوفية اسم الأمر وتاريخ بنائه ٥٥١٩ هـ .

وفي أيام الخليفة الفائز بنصر الله قدم ابن زريك والى الأثريونين بمجموعة إلى القاهرة واستولى على الوزارة ولقب بالصالح وقام بأمر الدولة إلى أن مات الفائز في عام ٥٥٥ هـ وأقام الصالح بن زريك في الخلافة العاضد لدين الله ، وقد منحه لقب للملك الصالح . وكان شاعرا مثقفا وكريما سياسيا لازال مسجده قائما أمام باب زويلة . قدم مات ضحية نساء القصر اللاتي أرسلن إليه بعض رجالهن فكمنوا له في دهاليز القصر وضربوه حتى سقط منشيا عليه وحمل جريحا . وكان آخر ما فاه به ندمه على أنه لم يستخلص بيت المقدس من أيدي الفرنج ونصيحته لابنه أن يحذر « شاور » الحاكم العربي للوجه القبلي . وقد كان للندم والحذر في عملهما إذا خلع شاور بن الملك الصالح وأسمه محي الدين زريك وكان قد استوزره العاضد واستخلف بعده شاور في عام ١١١٣م ودخل في السنة نفسها ملك بيت المقدس البلاد المصرية .

وكان جامع الصالح طلائع آخر أجمل جامع أنشئ في عهد الدولة الفاطمية ووجهته الثرية الفاطمية لانظير لها في جميع مساجد القاهرة من حيث تصميمها ويزيد في جمالها تلك العقود المملوءة بزخارف على هيئة مروحة . وبالجامع بقايا زخارف جصية ممتلئة بالكتابات الكوفية وأخشاب منقوشة تدل على مبلغ ما وصل إليه فن الزخرفة من الرقى في ذلك العهد .

ظاهر القاهرة الفاطمية

تكامنا عن أقسام القاهرة الداخلية ومنشأتها الهامة ، وسنصف ملحق بها من
تطور ونمو حتى نهاية الفواطم . كانت القاهرة الفاطمية من الجهة القبلية (باب زويلة)
متصلة بمصر التي امتدت بين الخليج الكبير وجبل للعظم وهذا الامتداد كان قسمين :
ماحاذى يمينك إذا خرجت من باب زويلة تريد مصر ، وماحاذى شمالك إذا
خرجت منه نحو الجبل . أما مواضع الأول فاشتمل على تحت الربيع ، والقشاشين
وقنطرة باب الحرق وخط قناطر السباع ويدخل في ذلك سوقة مصفور وحارة
الحمزين وحارة بنى سوسى إلى الشارع وبركة الفيل والملاية والممودية إلى الصلية
ومشهد السيدة نفيسة . وكانت تلك الأماكن تعرف بجنان الزهرى وبستان سيف
الاسلام وغير ذلك . وأما ماحاذى شمالك فكان جامع الصالح طلائع والدرج
الأحمر إلى القطائع . وكانت فيما بعد الرملة والليدان تحت القلعة . وأما جهة القاهرة
الغربية التي فيها الخليج الكبير فهي من باب القنطرة إلى القس وماجاور ذلك فانها
كانت بساتين في غربها النيل ، وكان ساحل النيل بالمقس حيث جامع أولاد عنان
الآن . فيمر في القس إلى السكان القدي يقال له الجراف ومواقع هذه البساتين
أصبحت فيما بعد أراضي اللوق والزهرى وغيرها . وكان فيما بين باب سعادة وباب
الفرج وبين الخليج قضاء لابنيان فيه . وللناظر لشرف على مافي غربى الخليج من
البساتين التي خلفها النيل . وأما من جهة القاهرة البحرية فكانت قسمين خارج
باب الفتوح والنصر . أما خارج الأول فكانت توجد منظره من مناظر الخلفاء وأمامها
بستانان كبيران ، ومن غربى هذه للنظرة في جانب الخليج الغربى منظره أخرى .
أما خارج باب النصر فكان فيه مصلى العيد ثم قضاء من اللصلى إلى الريدانية .

أما جهة القاهرة الشرقية وهي بين السور والجبل فانه كان قضاء ، ثم أمر الحاكم

بأمر الله أن تلقى أنربة القاهرة من وراء السور لمنع السيل من دخوله القاهرة
فصارت منها الأكوام التي حرفت بكيمان البرقية .

ولكى نوضح مراحل نمو القاهرة بإيجاز نذكر مايلي :

١ - توسعت القاهرة في أيام الخليفة الحاكم بأمر الله (حكم بين ٩٩٦ و ١٠٢٠ م) من ناحيتها الشمالية والجنوبية . ففي الشمال خارج باب الفتوح ذكر
للقرنزي (١) أن الطائفة الحسينية وهي إحدى الطوائف الفاطمية سكنت حارة
(خطة) الحسينية وكانت تتألف من عدة حارات يتوسطها اليوم من الجنوب الى
الشمال شارع الحسينية وشارع البيومي من باب الفتوح الى ميدان الجيش .

ويقول القرنزي في الخطط عن الحسينية : احدهما ماخرج من باب
الفتوح ، وطولها من خارج باب الفتوح الى قرية الخندق (٢) وهذه الشقة هي التي
كانت معاكن للجند في أيام الخلفاء الفاطميين ، والشقة الأخرى ماخرج من باب
النصر ، وامتد في الطول الى الريدانية (الباسية) ، وهذه الشقة يكن بها في أيام
الخلفاء الفاطميين سوى مصلى العبد نجاه باب النصر وما بين اللصل الى الريدانية فضاء
لا بناء فيه ، وكانت القوافل اذا برزت تريد الحج تنزل هناك ثم صارت هذه المنطقة
مقابر أنشئت حول قبر بدر الجمالي الذي أقامه خارج باب النصر واستمر ذلك الى
ما بعد سنة سبعمائة هجرية (١٣٠٠ م) .

وفي زمن الحاكم بأمر الله أيضا أخذ الأهالي جنوب السور الجنوبي يعمرن
ويبنون خارج أبواب زويلة والفرج . وكانت هذه الجهة حتى أوائل القرن الحادي

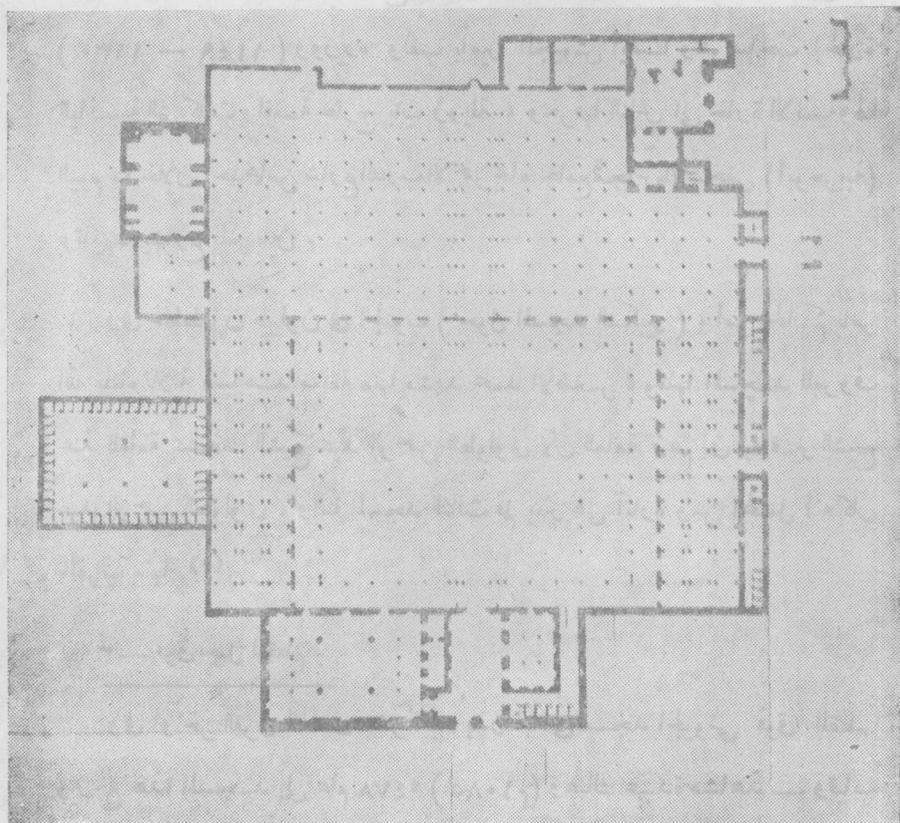
(١) النجوم الزاهرة لابن تغرى بردى / ج ٤ / ص ٤٥ .

(٢) على مبارك : الخطط التوفيقية ، ج ٢ / ص ٤٢ .

«فردانه» تنهاله ن لدریس د قنایه و الفقه قیید زده نالیا قیود یف برده
 مزان ییلا محنتیلا و لایه ن یفقه قنایه نون تسلط نون استیلا شفتان
 نایه لایه ن لایه لایه لایه (۱۶۰۱ - ۱۶۰۱)

تسلیق ن لایه

مزان ییلا محنتیلا ن لایه لایه لایه ن لایه لایه لایه ن لایه لایه لایه



فوق قیود ییلا محنتیلا ن لایه لایه لایه ن لایه لایه لایه ن لایه لایه لایه
 تسلیق ن لایه
 (۱۶۰۱ - ۱۶۰۱)

(۱) - ۱۶۰۱ - ۱۶۰۱

عشر غير عامرة بالباني حتى مدينة القطائع الطولونية ، وسرعان ما نهضت «ضاحية» امتدت تدريجياً حتى عظمت زمن المجاعة للمظلي في أيام الاستنصر لدين الله (١٠٣٥ - ١٠٩٤) حينما بدأ نجم الفسطاط في الأفول .

٢ - حارة اليانسية :

تسب هذه الحارة الى أبي القتبع يانس مملوك الخليفة الفاطمي الحافظ لدين الله (١١٣٠ - ١١٤٩) ووزيره ولقب بأمر الجيوش أيضا وهو صاحب الحارة اليانسية التي كانت واقعة خارج باب زويلة ، وحررها الناس الى حارة الانسية ولها اليوم مدخلان أحدهما من شارع الدرب الاحمر تجاه جامع قبحاس الأسحقى (أبوحرية) وثانيهما بشارع المريلين .

وفي خطط ابن طولون في الجنوب (حول المسجد الكبير) ، أمر الحاكم بامر الله ببناء ثلاثة مساجد معلقة منها مشهد عمدة الأصغر ، ومنها المسجد المعروف عند العامة بمسجد الشيخ عبد الرحمن الطولوني لأن العامة تزعم أن به قبر الشيخ عبد الرحمن الطولوني ، وأما المسجد الثالث فلم يثر على آثاره ومن المحتمل أنه كان بالقرب منها .(١)

٣ - فوق جبل المقطم :

وفي أواخر القرن الحادى عشر شيد بدر الجمالى مسجد الجيوشى فوق المقطم ويرجع هذا المسجد الى عام ٥٤٧٨ هـ (١٠٨٥ م) وهناك عدة مشاهد - وقباب شيدت أيضا خارج قاهرة للنواطم في القرن الثانى عشر كمشهدى كلثم والسيدة رقية وقبة القاسم الطيب . وكان مسجد الصالح طلائع خاتمة الباني الفاطمية التي شيدت خارج باب زويلة في عام ١١٦٠ .

(١) على مبارك : المخطط ج ٢ ص ٤٢ .

ولنرجع إلى ما ذكره المقرئ في خطه عندما أشار إلى ما بناه ، الفاطميون في ظاهر القاهرة : « توسع الناس في العمارة بظاهر القاهرة ، وبنوا خارج باب زويلة حتى اتصلت العمارت بمدينة الفسطاط ، وبنوا خارج باب الفتوح وباب النصر إلى أن انتهت العمارت إلى الريدانية (العباسية اليوم) وبنوا خارج باب القنطرة إلى حيث الموضع الذي يقال له بولاق حيث شاطئ النيل . وبنوا خارج باب البرقية والباب المحروق إلى سفح الجبل بطول السور فصار حينئذ العامر بالسكنى على قسمين أحدهما يقال له القاهرة وآخر يقال له مصر » .

(٤) ويبدو أن للمقرئ نسي أن يذكر تاريخ هذا التوسع العمراني ومق حدث ولكن لم يفت على مؤرخنا الجليل أن يؤرخ التوسع الفاطمي التالي ، فيذكر لنا أنه في عهد الخليفة الأمر باحكام الله (١١٠١ - ١١٣٠) نادى وزيره محمد بن فاتك المعروف بالمأمون بن البطائحي بتعمير الخرائب والفضاء الذي يقع بين باب زويلة ومشهد السيدة نفيسة فنودي لمدة ثلاثة أيام بالقاهرة ومصر بان « من كان له دار في الخرائب أو مكان فليصمره ومن عجز عن عمسارته بيديه أو يؤجره من غير نقل شيء من اتقاضه ومن تأخر بعد ذلك فلا حق له في شيء منه ولا حكر يلزمه » فلما نادى الوزير للأمون عمر الناس ما كان من ذلك مما يلي للقاهرة من جهة للشهد النفيسى إلى ظاهر باب زويلة ، ولم يبق من المعسكر ما هو عامر سوى جبل يشكر الذي بنى عليه جامع ابن طولون (٢) . ولكن في أيام صلاح الدين الأيوبي حينما بدأ بناء قلعة الجبل (بعد ١١٧٦) أمر بهدم عدد كبير من مساكن تلك الضاحية ، ربما حرصا على الأمن ، وأقام على أرضها البساتين وأخذت تشغل للساحة الممتدة من باب زويلة إلى للشهد النفيسى حيث كانت تهابه تلك البساتين الخضراء .

(١) المقرئ : خطط ، ج ١ ص ٣٠٥

وهناك في أقصى الجنوب ، وأمام مدينة الفسطاط حيث يجري النيل تقابلنا جزيرة الروضة التي تتوسطه . وكان الولاة العرب قد عنوا بها وفي أثناء إمارة أحمد بن طولون (٨٧٠ - ٨٨٤ م) أهدأ بناء أموار الجزيرة وحصن — ونها (٨٧٦ م) وجملها مقرا للخرائن أمواله وشيد فيها الدور كما أقام فيها دار صناعة للسفن الحربية وكانت مقر ديوان الجهد . وفي أيام محمد بن طنج الأخشيد أنشأ بستانا وداراً سماها المختار .

ثم عرفت الجزيرة بالروضة نسبة إلى البستان الذي أنشأ في نهايتها البحرية البحرية الأفضل شاهنشاه بن أمير الجيوش وبدر الجمالي في عام ٤٩٠ هـ (١٠٩٦) وسماه الروضة ، ويوضح هذا مبلغ عناية أحمد الأمراء الفواطم بموقع الروضة التي ما برحت متنزها ملكيا ومسكنا للاهالي .

طرح نهر النيل وظهور أرض جديدة :

طرا على ساحل النيل الشرقي في السافة للمتدة من الفسطاط إلى روض الفرج تسع تغييرات على الأقل فيما بين عام ٦٨٨ م أي في زمن حكم الدولة الأموية ، وعام ١٨٣٠ في أثناء حكم محمد علي . ويهمننا ونحن بصدد الحديث عن القاهرة في العصر الفاطمي أن نشير إلى طرح النيل الثالث الذي ظهر حول سنة ١١٢٦ م في أيام الدولة الفاطمية ، إذ طرح النيل أرضا جديدة كسبتها القاهرة وزاد في عمرائها وبذلك تحول شاطئ النيل الشرقي للمرة الثالثة إلى الغرب في السافة التي بين جامع الطيبي بشارع الديورة . وبين النقطة التي يتلاقى فيها شارع عراقى بشارع رمسيس . وقد نتج عن هذا الطرح للمنطقة التي تقع فيها اليوم كلية تجارة عين شمس . ومه يانى وزارة

للتأمين القديمة) ووزارة البحث العلمي والرى والصحة ومجلس الشعب والجامعة
الأمريكية بالقاهرة وكلية اليمية ووزارة الأوقاف والبنك الأهلى ويمر فيها شارع
شريف وامتداده إلى ميدان عرابى .

والآن ننتقل إلى المرحلة الثانية لتطور القاهرة فى أيام الأسرة الأيوبية ،
وفى أيامها أخذت المدينة تتنازل عن مكاتها الارستقراطية التى تمت بها خلال
فترتين ،

٢- امتداد القاهرة أيام الأيوبيين

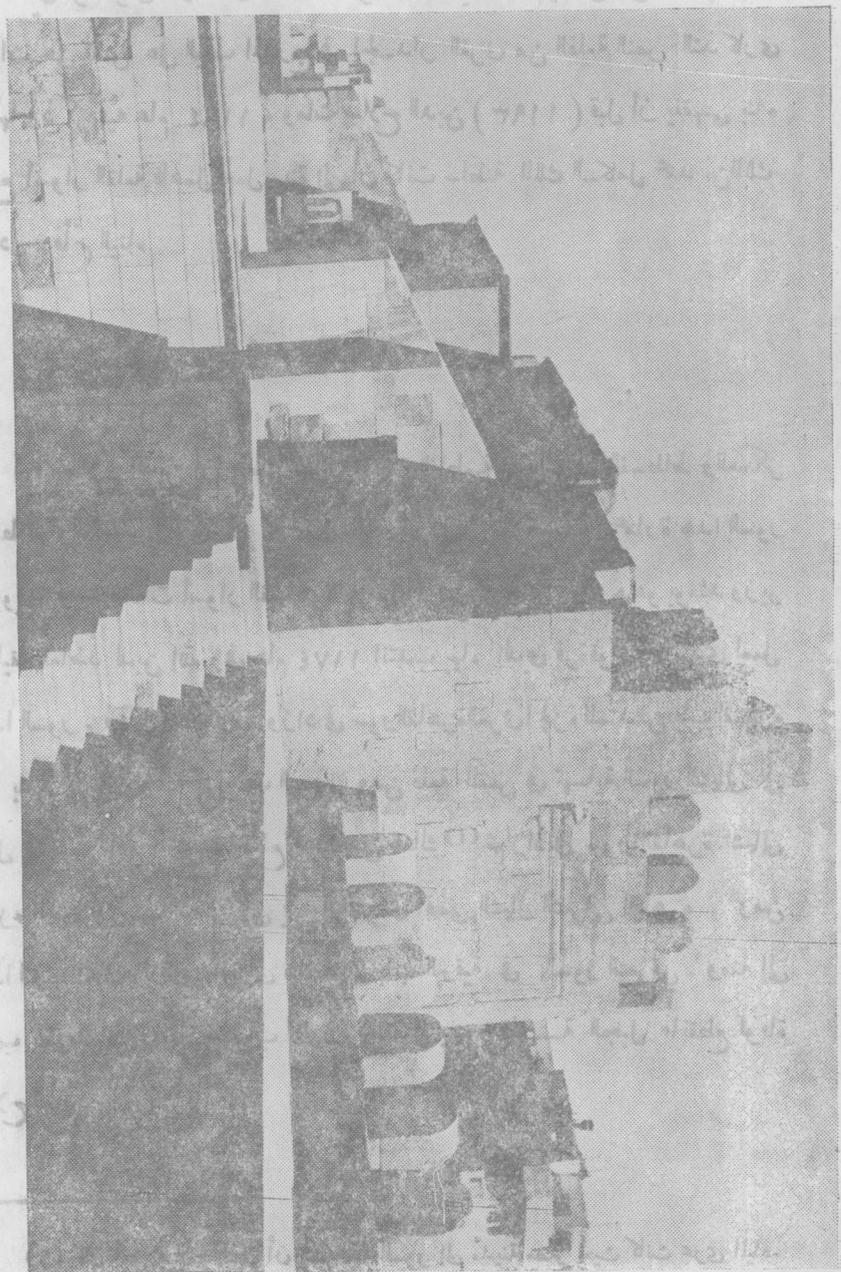
أصبحت القاهرة الأيوبية فى آخريات القرن الثانى عشر ومستهل الثالث عشر
تتميز عرى ذلك القتر الملكى الفاطمى . وأضحت تشتمل مساحة قدرها عشر أمثال
ما كانت عليه ، فاحتوت على عدد كبير من المباني ذات الطابع الهندسى المستحدث ،
وضارت لها قلعة تشرف عليها فوق جبل للقطم ، وكان الفضل فى هذه الانجازات
لصلاح الدين الأيوبي . غير أنه مات قبل أن يراها ، بل شاهدها أشقاؤه وأبنائه
وأحفاده وعاشوا فيها .

قلعة صلاح الدين :

كان بناء القلعة فكرة ابتكرها هذا الماهل ، فقد شاهد فى الشام أن لكل
مدينة قلعة حصينة تحميها . فلم لا يكون أيضا للقاهرة قلعتها ، كما لها سورها . . .
وهنا تنقل ما كتبه عماد الدين كاتب السلطان صلاح الدين فى هذا الشأن :

« كان السلطان لما ملك مصر رأى أن مصر والقاهرة كل واحدة منها سور
يحميها ، فقال : أن أفردت لكل واحدة سورا احتاجت إلى جنود كثير يحميها .
وأنى أرى أن أدير عليها سورا واحد من الشاهلىء . وأمر ببناء قلعة فى الوسط
عند مسجد أسد الدولة على جبل للقطم » :

قطعة من سور القاهرة العسالي



وأمر صلاح الدين ببناء القلعة في عام ١١٧٧ ، فأقام على عمارتها الأمير الطوائشي بهاء الدين قره قوش الأسدي أحد أمراءه المخلصين ، ولم ينقض على العمل است سنوات حتى نقش على الباب المدرج في الجدار الغربي من القلعة النص التذكاري لبنائها وذكر فيه عام ١١٨٤ ، ومات صلاح الدين (١١٩٣) قبل أن ينقضي بناء جميع أسوار القلعة فأهمل العمل مدة إلى أن كانت سلطنة الملك الكامل محمد بن الملك العادل . فأتم البناء

سور حول القاهرة :

أراد صلاح الدين أن يجعل على القاهرة الفاطمية ومصر (لانسطاط والمسكر والقطائع والقلعة سورا واحدا يحيط للمدينة الكبرى بأسرها فبدأ عمارة هذا السور الأيوبي (ويعتبر ثالث أسوار القاهرة عند الأثريين) عام ١١٧١ وهو يومئذ وزير الخليفة المعاضد لدين الله وفي عام ١١٧٤ اتدب بهاء الدين قره قوش الأسدي لعمل هذا السور . فبناه بالحجارة . وزاد في سور القاهرة الغربي الجزء للمتدمن باب القنطرة إلى باب الشمرية ومنه إلى باب البحر . ومن قلعة القس في نهاية السور الشمالي على النيل بجانب جامع القس وانقطع السور من هناك (١) ثم زاد في سور القاهرة الشمالي الجزء الذي يلي باب النصر إلى برج الظفر في أقصى الشمال الشرقي للقاهرة . ومن هذا البرج الذي مازال باقيا في مكانه إلى باب البرقية في السور الشرقي . ومنه إلى درب بطوط وإلى خارج باب الوزير ليتصل بسور قلعة الجبل فاتقطع لوفاة صلاح الدين .

(١) كان أمل صلاح الدين أن يمد هذا السور إلى مدينة مصر حيث كانت تجري المياه.



بَابُ النَّصْرِ فِي بَغدَادِ عِرَاقِ

باب النصر

السور الغربي :

شرع صلاح الدين في سنة ٥٦٦ هـ في بناء السور الغربي للقاهرة على الحافة الشرقية للخليج المصري في محاذة سور بدر الجمالي وسور جوهر وطى بعد قليل منهما إلى جهة الغرب . وأقام صلاح الدين فعلا قطعة من السور الغربي امتدت في النهاية الغربية لسور بدر الجمالي الشمالي واتجهت نحو الغرب إلى باب القنطرة الذي انشأه صلاح الدين في السور الغربي تجاه باب القوس الذي كان يعرف باب الرماحين . لكنه أوقف العمل ورأى أن يزيد في سور القاهرة الشمالي وبعده إلى الغرب إلى شاطئ النيل الشرقى .

السور الشمالي :

شيد صلاح الدين قطعة من السور الشمالي غربي البرج المستدير الذي يقع طه بعد ١٠٣ مترا غربي باب الفتوح ، وتمتد هذه القطعة عند برج كثير الاضلاع ثم تنحرف إلى الجنوب الغربي وتتجه ثانية نحو الغرب إلى أن تلتقي قريبا بشارع الخليج المصري ، وقد ازيلت قطعة منها عندما شق شارع الجيش منذ ثلاثين سنة تقريبا . ولستمر هذه القطعة من السور إلى ما بين سكة الفجالة وشارع الطبالة حيث ما زالت توجد بقايا قاعدة برج مستدير ، كما بقيت اجزاء متناثرة من هذا السور و برج ، يشهد على ذلك اسم شارع البرج عند ملتقى شارع الظاهر وشارع الفجالة . وامتد السور الشمالي إلى جهة الشرق حيث موقع برج الظفر ولا يزال يوجد من هذه الزيادة جزء من سور القسم الشرقي المجاور للبرج المذكورة .

السور الشرقي :

يمتد هذا السور من باب الوزير إلى درب المحروق ، ومن درب المحروق يمتد نحو الشمال إلى برج الظفر . وبه الباب الجديد وباب لبرة وباب لبرة وباب القراطين

(الباب -- المروق) ولا يزال باقيا إلى اليوم أجزاء كثيرة من لسور الشرقى ، منها الجزء الذى يمتد جنوبي برج الظفر بطول أربعمائة متر ويقع فى هذا الجزء الباب الجديد ، وتمتد قطعة أخرى إلى قبيل باب البرقية ، وتمتد أجزاء كثيرة تحت كيان التراب ومن الجور للذ كور القطعة التى تبدأ من برج درب المروق وتسير إلى الجنوب بطول ٧٦٠ إلى أن تنقطع خلف زاوية الشيخ مرشد بشايع باب الوزير ، وهذا الجزء هو أطول الأجزاء الباقية من السور للشرقى وحائطه أغلبه سليم إلى اليوم ، ومنه جزء آخر يمتد إلى الجنوب بين الحائقات النظامية (وقد خربت اليوم) وبين بقايا جامع السبع سلاطين (خرب) وطول هذه الجزء ١٢٥ م . وأما الباقي من السور للشرقى وهو الجزء الذى يمتد من قلعة الجبل إلى سور مدينة مصر ، فلم يتبأ للسلطان صلاح الدين أن يقوم به .

السور الجنوبي :

لما مد صلاح الدين سور القاهرة الغربى إلى غربى السور الفاطمى ، جعل باب سعادة (الثانى) فى نهايته الجنوبية وشيد قطعة جديدة من السور الجنوبي للقاهرة تصل إلى باب الفرج (الثانى) ثم التحقت بسور بدر الجبل وباب زويلة .

أما سور الفسطاط الذى يبدأ من الطرف الجنوبي للقلعة إلى الفسطاط فلم يصل به إلى النيل ، وقد بقيت منه عدة أبراج لم يكشف عنها جيدا من الناحية الأثرية ، واحتوى هذا السور على كثير من الأماكن للمعمودة السقوف لتسهيل عمل المدافعين عن المدينة . ولا يزال واحد منها قائما على بعد سبعين مترا جنوبي باب القراة الذى فتحه الظاهر بيبرس فى حائط مجرى المياه وذلك ليسهل على أهل القاهرة الخروج بموتاهم إلى القراة (جبانة المالك وسيدى جلال والإمام الشافعى)

أبواب القاهرة الايوبية

نوجز الكلام الآن على أبواب القاهرة الايوبيين على ترتيب الأسوار :

١ — أبواب السور الغربي ، من الشمال إلى الجنوب (٥٥٦٤ - ١١٦٩ م) :

(ا) باب القنطرة الثاني ٢ — باب الخوخة ٣ — باب سعادة .

(ب) أبواب السور الشمالي (٥٥٧٢ - ١١٧٦ م) :

١ — باب البحر (هدم حوالي ١٨٤٧) ٢ — باب الشمرية (هدم حوالي

١٨٨٤) .

(ج) أبواب السور الشرقي (٥٥٧٢ - ١١٧٦) :

١ — الباب الجديد ٢ — باب البرقية (تحت كيان الدراسة)

٣ — الباب المحروق وبرجاء الجانبين باقيان .

(د) أبواب السور الجنوبي للقاهرة (٥٥٦٤ - ١١٦٩ م) :

باب الفرج الثاني (لا يعلم متى خرب)

(هـ) أبواب سور الفسطاط (٥٥٧٢ - ١١٧٦ م) :

١ — باب الفرانة (بعض اجزائه باقية) ٢ — باب الصفاء (خربه الظاهر

بيروس) .

٣ — باب الفسطاط (بعض مداميك ابراجه الجانبية باقية) .

وننتقل إلى الكلام على كل منها :

باب القنطرة الثاني

شيد صلاح الدين في عام ٥٦٩ هـ - ١١٧٤ م على الحافة الشرقية للخليج، وعرف بهذا الاسم لأنه يقع تجاه القنطرة التي بناها جوهر القائل على الخليج الكبير في سنة ٣٦٢ هـ - ٩٧٢ / ٧٣ م (الخطط القرظية - ج ٢ ص ١٤٧)

باب الخوخة

شيد في واجهة باب الخوخة الفاطمي، ولا تعرف الظروف التي اختفى فيها هذا الباب. وكان يقع على مقربة منه مسجد باب الخوخة الذي يعرف اليوم باب جامع القاضي يحيى زين الدين.

باب سعادة

عرف باب سعادة الأول بهذا الاسم لنسبته إلى أحد قادة المزمز الدين الله الفاطمي سعاد بن حيان.

باب البحر

كان يعرف هذا الباب بباب القس لوقوعه في قرية القس التي كانت يقال لها المقسم أو باب البحر لأنه كان يشرف على النيل، ثم عرف باسم باب الحديد لأنه كان مركبا عليه بوابة من الحديد، ونسب إليه ميدان باب الحديد وكان هذا الباب يقع عند مدخل شارع فم البحر من جهة الميدان المذكور وقد هدم حوالي عام ١٧٤٧.

باب الشعرية

كان يقع بين باب البحر والخليج في السور، وقد نسب إلى طائفة من البربر يقال لهم بنو الشعرية (الخطط القرظية ج ١ ص ٣٨٢) ورسم هذا الباب

على خريطة القاهرة التي وضعها جران بك. مدير التنظيم في عام ١٨٧٤ على رأس سكة باب الشمرية التي تعرف اليوم بسوق الجراية ، وقد أزيل هذا الباب في عام ١٨٨٤ خلال مبانيه ، وكان يعرف أخيراً باسم باب العدوى . لوقوعه بجناح جامع العدوى .

الباب الجديد

أحد أبواب السور الشرقي للصلاحى عرف باسم الباب الجديد لأنه كان أول باب أنشئ في سور القاهرة الشرقي من الناحية الشمالية بعد باب النصر وله بديتان كبيرتان . وقد كشفه الأستاذ كريز ويل الأثرى المعروف .

باب البرقية

من الأبواب الصلاحية ذكره للقرينى (ج ١ ص ٣٨٠) وتكلم القلقشندي (صبح الأعنى ج ٣ ص ٣٥٤) بقى مدة طويلة مختفياً تحت كيان التراب حتى اكتشفه للرحوم على بهجت مدير الآثار العربية . ولا يزال هذا الباب موجوداً يأكله ومحتفظاً بشكله الأصلي من الأساس إلى الشرفات وقد نسب إلى جنود برقة في الجيش الفاطمى ، وعرف أيضاً بباب الغرب .

الباب المحروق

ذكره للقرينى (ج ١ ص ٣٨٣) والقلقشندي (ج ٣ ص ٣٥٤) وكان يعرف قديماً باسم باب القراطين لأنه كان يوجد بجواره سوق اللواشى والنم وكان يجلس عنده القراطون الذين يبيعون القراط وهو البسم .

يمكن أن نوجز أهم معالم القاهرة في أيام الأيوبيين فيما يلي :

(١) تدمية الجليل والسور :

كان لبناء القلعة والسور حول للمدينة أثر كبير على امتداد العمران في القاهرة الأيوبية ، ذلك لأن تركيز الإدارة الحكومية ومصالح الجيش في القلعة نقل مركز ثقل المدينة إلى وسطها وجعل القاهرة الكبرى تنمو وتتوسع من ناحيتها الجنوبية حتى كاد الاتصال يتم بين القاهرة الأولى وبين منسقاط والمعسكر والقطائع ، وبخاصة بعد إنشاء عدد كبير من المدارس الدينية بالقرب من ضريح الإمام الشافعي ، وجامع عمرو بن العاص ، وفي القاهرة الفاطمية أيضا . كما أن امتداد السور الجديد إلى النيل من ناحية القاهرة الشمالية يسر توسيع القاهرة في ذلك الاتجاه الجديد .

(٢) بركة الفيل :

تقع بركة الفيل خارج باب زويلة فيما بين القاهرة ومصر وشمال شرق ميدان السيدة زينب اليوم . ولم تكن بركة عميقة وإنما كانت تطلق في أرض زراعية ينمرها ماء النيل سنويا زمن الفيضان وكانت تروى من الخليج المصري وبعد نزول الماء تزرع أصنافا شتوية . تحولت أراضيها تدريجيا من الزراعة إلى السكن من سنة ٦٢٠ هـ (١٢٢٢ م) في العصر الأيوبي ، ولم يبق من أرض البركة غير بناء إلى عام ١٨٠٠ لإلاقطعة أقيم عليها فيما بعد قصر عباس الأول وإلى مصر وهي للمروفة بسراى الحلبية وحديقتها وفي عام ١٨٩٤ قسمت أراضي الحديقة وفي عام ١٩٠٢ هدم القصر وقسمت أراضيها وبيعت وعرفت فيما بعد بالحلمية الجديدة .

كانت بركة الفيل تشغل من القاهرة الحالية المنطقة التي تحده اليوم شمالا بسكة

الجباية ومن الغرب بشوارع درب الجميز واللبودية والخليج المصري، ومن الجنوب شارع عبد المجيد اللبان ، ثم يميل الحد إلى الشمال الشرقي حتى يتقابل مع أول شارع نور الظلام ويبر فيه إلى الشارع الأثني ، ومن الشرق تسكلة شارع نور الظلام فشارع مهذب الدين الحكيم فسكة عبد الرحمن بك وما في امتدادها إلى الشمال حتى تقابل الحد البحري (محمد رمزي : النجوم الزاهرة ، ج ٧ ص ٣٦٦-٣٦٧) . وهكذا نلاحظ أن منطقة سكنية جديدة عمرت في القاهرة على أيام الأيوبيين ثم ازدهرت كحي أرستقراطي في أيام للماليك وبقيت على هذه الحال على أيام العثمانيين .

(٣) جبل يشكر ومناظر الكبش :

يطلق اسم لكبش على الركن الشمالي الغربي من جبل يشكر حيث النقطة الواقعة غرب جامع ابن طولون ولا تزال هذه للمنطقة تعرف إلى اليوم باسم قلعة الكبش بشارع الشيخ عبد المجيد اللبان (مراسينا) سابقا . وفي أثناء سلطته الصالح نجم الدين أيوب أنشأ عدة قصور جميلة على ذلك الجبل عرفت باسم المناظر وكانت تشرف من أعلى جبل يشكر على بركة قارون وبركة الفيل وعلى البساتين التي في بر الخليج الغربي من القس إلى فم الخليج ، والتي في بره الشرقي من باب زويلة إلى الصليبية ، كما أنها كانت تشرف على النيل وجزيرة الروضة وقلعتها ، فكانت منزهات جميلة يقصده الناس وقد تائق الملك الصالح في بنائها . وما زالت بعد وفاة الملك الصالح من للنازل الملكية إلى أن هدمها الملك الأشرف شعبان بن حسين في عام ٧٦٨هـ (١٣٦٦م) فحكر الناس الكبش وبنوا فيه المساكن .

(٤) جزيرة الروضة :

وفي أقصى الجنوب ، وفي مقابل النيل ، شيد الملك الصالح نجم الدين أيوب (١٢٣٩م) قلعة الروضة أو قلعة الصالحية وقد شرع في حفر أساس القلعة في يوم الجمعة ١٦ شعبان ٦٣٨ هـ ، وفي عاشر ذي القعدة وقع المدم في الدور والقصور والمساجد التي كانت بالجزيرة ونحو الناس من مساكنهم التي كانوا بها وهدم كنيسة كانت لليماقة بجانب مقياس النيل وأدخلها في القلعة واتفق في عمارتها أموالا حمة ، وشيد فيها الدور والقصور وعمل لها ستين برجاً وأقام بها جامعاً وغرس بداخلها أنواعاً شتى من الأشجار ، ونقل إليها عمد الصوان من المعابد القديمة ، وعمد الرخام وعمدها بالأسلحة وآلات الحرب وما يحتاج إليها من الفلأل — والازواد خشية محاصرة الفرنج ، فأنهم كانوا حينئذ في عزم أن يقصدوا بلاد مصر .

وذكر المقرئ أن مباني القلعة امتدت إلى مقياس النيل من الجهة الجنوبية وموجز القول أن هذة القلعة كانت تشغل مساحة من الأرض لا تقل عن ٦٥ فدانا في جنوب جزيرة الروضة . وقد سكن الملك الصالح نجم الدين هذة الجزيرة مع مماليكه وكانت عدتهم ١٠٠٠ مملوك بعد أن نقلهم من قلعة الجبل . واستمرت تلك الجزيرة عامرة حتى تولى السلطنة عز الدين أيبك فأمر بتخريب القلعة ليمر بها مدرسته العزية التي كانت برجة الخنة بمدينة مصر واقضى به ذؤو الجاه فاتخذوا كثيرا من سقفها ونوافذها وغيرها ، ويبيع أخشابها ورخامها وأشباه جلييلة .

٥ - قبة الإمام الشافعي :

لما توفي الإمام الشافعي في سنة ٢٠٤ هـ (٨١٩ م) دفن بتربة أولاد ابن عبد الحكم وفي عام ٥٧٢ هـ (١١٧٦ م) شيد السلطان صلاح الدين تربة الشافعي وبني بجوارها المدرسة الإصلاحية ، وفي سنة ٥٧٤ هـ (١١٧٨ م) فرغ من عمل تابوت الخشبي الذي يعلو تربة الشافعي وهذا التابوت صنع من خشب الساج الهندي المقسم إلى حشوات هندسية منقوشة ومكتوبة عليها الآيات القرآنية وترجمة حياة الشافعي واسم الصانع الذي قام بعمله وذلك بالحيط الكوفي والنسخ الأيوبي . ولما توفيت والدة الملك الكامل بن العادل سنة ٦٠٨ هـ (١٢١١ م) شيد الكامل قبة كبيرة ضمت إلى قبر الشافعي وقبر أولاد ابن عبد الحكم وأفراد الأسرة الأيوبية ثم أرسل للماء إليها من بركة الحبش وكان الفراغ من إنشائها في يوم الأحد ٧ جمادى الأولى سنة ٦٠٨ هـ (١٢١١) ثم أنشأ تابوت من الخشب فوق تربة والفته لا يقل دقة عن تابوت الشافعي .

وللكامل الكامل محمد هذا هو منقضى دار الخلافة التكاملية الجليلة في النعاسين وكان ذلك في عام ٦٢٢ هـ (١٢٢٥) وتقع بقايا الدار التكاملية على الجانب الغربي لسوق النعاسين وإلى الناحية الشمالية للمدرسة وضريح السلطان برقوق أمام منشآت الملك الصالح نجم الدين .

وتنسب إلى الملك الصالح نجم الدين الأيوبي للمدرسة الصالحية التي وضع أساسها في ١٤ ربيع الأول سنة ٦٤٠ هـ (١٢٤٢) وبدأت الدراسة فيما في العام التالي بالرغم من ضخامة بنائها وقد أقيمت على موضع القصر المظلمى الشرقى ، وأول من درس بها قاضى القضاة شمس أبو بكر .

ومثذنة للدرسة نموذج فريد للمأذن الأيوبية ولها مكاتبا من ناحية التطور
للممارى للمثذنة .

تلك ، كانت القاهرة الأيوبية الكبرى حينما استقبلت حكم دولة للمالك الأولى
في أعقاب انتصار الأيوبيين في معركة المنصورة عام ١٢٥٠ م .

د . عبد الرحمن زكي

بعضها قريه له فيه اهلها لوط قريه والى زعمنا ندره ونحوها قريه قريه
قريه قريه

بعضها قريه له فيه اهلها لوط قريه والى زعمنا ندره ونحوها قريه قريه
قريه قريه



قلعة الجبل : يمر يؤدي الى باب العزب